١٨ حزيران (يونيو) موعدُ د. نوال السعداوي مع المحكمة لـ «التأكُّد» إنْ كانت قد ارتدّت عن الإسلام أم لم ترتدّ. فإذا «تأكّدت» المحكمة حُكِمَ عليها بالتفريق عن زوجها د. شريف حتاتة بحسب قانون «الحسْبة.»

١٨ حزيران موعد المثقفين الأحرار للدفاع عن حريّتهم في التعبير والتضامن مع أنفسهم قبل كل شيء آخر، وقبل أن نتحوَّل جميعنا إلى فرج فودة أو نصر حامد أبو زيد أو ابتهال يونس أو أحمد البغدادي... والقائمة تطول. فهل نتحسَّس رقابنا؟

قضية د. نوال السعداوي

لن نفترق

د. شريف حتاتة*

صباح اليوم السادس من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٦٣ صعدتُ السلالم الضيِّقة المظلمة خلف الشرطيّ الذي فَتَحَ لي بابَ الحجز في قسم شرطة قصر النيل. في هذه الغرفة المدفونة تحت الأرض، المليئةِ بالهواء الفاسد، المزدحمةِ بأجساد عشراتٍ من المجرمين العتاة، والقوّادين، وتجّار المخدِّرات، والشحّاذين، والنشّالين، والسكارى؛ في هذه الغرفة التي لم يكن فيها سوى وعاءٍ من الماء للشرب، ووعاءٍ آخر للتبوّل والإخراج امتلأ بفضلات الرجال، قضيتُ ثلاثة أيام بلياليها تمهيدًا للإفراج عني.

كان هذا بمثابة التوديع الذي رتَّبتْه لي السلطاتُ بعد أربعة عشرة عامًا عشتُها خلف قضبان السجن.

سرتُ على قدميَّ حاملاً كيسَ ملابس، مجتازًا الشوارعَ المُشْمسة لحيِّ «جاردن سيتي» وقد بللتْ خضرتَها نقاطُ الندى اللأمعة، عاجزًا عن

* - روائيّ وطبيب ومناضل قوميّ تقدُّميّ مصريّ. من رواياته: **الشبكة، والعين ذات الجفن المعدنيّ، ونبض الأشياء الضائعة**. وهو أيضًا زوج د. نوال السعداوي.

استيعابِ حقيقةِ أنّني أسير طليقًا في مدينتي القاهرة تحت السماء الزرقاء المفتوحة، وسط أفواج من الأطفال يتّجهون إلى مدارسهم في الصباح. كأنّني خلال سنين السجن فقدتُ قدرتي على الإحساس.

بعد الإفراج عني بشهور أنْعمت عليَّ السلطاتُ بوظيفة في وزارة الصحّة في أدنى الدرجات، لأجد نفسي جالسًا في غرفة إلى جوار مراحيض الوزارة. كانت الغرفةُ تُشْبه الزنزانة التي خرجتُ منها: على نافذتها قضبان، وفي أنفي رائحةُ المراحيض. كأنّ حياتي لم تتغيّر، وكأنّه لم يُفرجْ عني.

في الغرفة خمسةُ مكاتب، وخمسةُ أشخاص... مثل السجن تمامًا: أربعة وأنا خامسهم. خلف كل مكتب يجلس شخص يقلِّب في الأوراق، إنْ كانت أمامه أوراق، أو يحملق في الفراغ متفاديًا النظرَ إلى غيره. مكتبي أنا أصغرُ المكاتب وأقدمُها، تشقّق فيه القرصُ ليظهرَ الخشبُ العاري، ولتنغرس في أصابعي الشظايا.

الوجوه الجالسة في الغرفة، أو الداخلة إليها أحيانًا، فيها خضوعٌ شاحب... ماعدا وجهها هي، الذي لا أعرف كيف جاء إلى هذا المكان. تُطلّ من خلف مكتبها هالةٌ من الشعر الأبيض اللامع، وعينان سوداوان، وأسنانٌ تشعّ بالبريق، بطفولة متأجّجة وسط الملامح.

كانت تنتمي إلى عالم آخر غير هذا العالم الساكن الكئيب، مثلي أنا؛ فقد جئتُ إليه من عالم الزنازين، والأحلام الواسعة. همسوا إليَّ بأنّها تزوجتْ مرتَيْن، وطلّقتْ مرتَيْن، وأنّها امرأة تَكْتب عن المحرَّمات. وهمسوا إليها بأنّني متمرِّدٌ، ومتآمِرٌ، وخطير.

نظرتُ إليها، فنظرتْ إليَّ. تحدَّثتُ إليها، وتحدَّثتْ إليَّ. خرجنا من باب الغرفة، وسرنا إلى جوار النيل. صعدنا فوق جبل المقطّم أعلى المدينة بعيدًا عن الهمسات، والفساد، والمراحيض. سافرنا إلى البحر، وسَبَحْنا فيه. تعانقتْ أجسامُنا تحت الشمس. داوتْ جروحي الغائرةَ في اللَّحم. جعلتني أَنْطق بعد أن تعلَّمتُ الصمت. جعلتني أكتبُ ما لم أكتبه، وأُدركُ ما لم أكن أدركه. كانت لديها طفلةٌ اسمُها «منى» فأصْبحتُ لها أنا الأبَ. تزوَّجنا. أنجبنا ولدًا؛ أنجبنا أخًا للأخت.

سبعة وثلاثون عامًا من الزواج، سبعة وثلاثون عامًا من الحوار، والحُبّ، ومن العمل والجهد. سبعة وثلاثون عامًا من المعارك خضناها جنبًا إلى جنب. لم تَعْرف هي الراحةَ في أيّ وقت. لا تطيق الظلم، ولا تَسْكت عنه. من أجل الصّدق تَفْقد عملَها، وتَدْخل السجن، وتواجه الحملاتِ ضدّ سُمْعتها. من أجل الكتابة تُفني حياتَها. تجلس الساعات الطويلة يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، لتَخْرج من بين أصابعها الطويلة المتوتّرة رواياتٌ، وقصصٌ، ودراساتٌ، ومقالاتٌ، وبحوثٌ، وأحيانًا مسرحيّاتٌ، أو شعرٌ. خمسة وثلاثون كتابًا هي حصيلتها. وما لم يُنْشر بعدُ، ليتراكم في دواليبها، ربَّما يفوق ما نشرتْه حتى اليوم. متأجّجةٌ، متدفّقةٌ بالأحاسيس والفكر، كالنبع الذي لا ينضب، ولا يمكن إيقافُه.

ومع كل هذا، هي أمٌّ، وأيُّ أمّ. صديقة، وأيُّ صديقة. معًا صَنَعْنا أُسْرتَنا: ابنةً كاتبةً لها قلمُها، وابنًا مُخْرجًا سينيمائيًا مُصرًا على الفنّ، مُصرًا على الصدق مثل المرأة التي ولدتْه. لكنْ منذ أسبوعَيْن أو أكثر أو أقلّ رفع رجلٌ «محامٍ» قضيةَ حسْبةٍ ضد نوال السعداوي يَطْلب فيها التفريقَ بينها وبيني لأنّها ـ وفقًا لتصريحات المفتي ـ خَرَجَتْ في ما تقوله عن تعاليم الإسلام. ففي مصر الآن قوى سياسيّة تتستّر بالإسلام لتَفْرض إرادتَها، وتَدْعم نفوذَها. قوى سياسيّة تريد أن تُسْكت كلَّ صوتٍ يعارضها. تَنْشر فكرها السلفيّ وتعزِّز مواقعها. تتغلغل في أجهزة الدَّولة ومؤسساتها: من مجلس الشعب، والشورى، إلى وسائل الإعلام، والنشر، فأجهزة التشريع، والقضاء، والشرع، والقطاع المدنيّ عن طريق النقابات المهنيّة والجمعيّات الأهلية المختلفة.

إنّها تزحف إلى السُّلطة خطوةً بعد خطوة، ببطء بعد أن تعلَّمت الدرسَ، بعد أن أدركتْ أنّ الشعب المصريّ يَكْره العنف الواضح. فلجأتْ إلى إرهاب الفكر ومحاصرته، محاولةً القضاءَ على كل رأي حرّ. إنّ الأصوليّة ليست سوى الوجه الآخر لعولمة السوق، وثقافةِ الاستهلاك والجنس. والأصوليّة تشْغلنا في معارك جانبيّة، تنحرف بنا عن معارك فلسطين، والعراق، ولبنان، وسوريا ضدّ الخصوم الذي يسعون إلى حصارنا. تَحْرفنا عن مواجهة المشاكل الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي تهدِّد مستقبلنا. تسيء إلى سمعة الإسلام والعروبة، وتمهِّد للهجمات التي تتوالى علينا من إعلام الغرب ودوائرِ الحكم الأوروبيّة والأميركيّة.

ليست هذه هي المرّة الأولى التي تتعرَّض فيها نوال السعداوي لحملات من هذا الصنف. فهي لم تكفّ عن خوض المعارك ضدّ القوى الدوليّة، والإسرائيليّة، والعربيّة التي تَقْهرنا، وتَعْمل ضدّ مصالح شعوبنا. وفي الفترة الأخيرة تزايد نشاطُ القوى السلفيّة في مصر مستغلّةً الظروفَ الاقتصاديّةَ الصعبة التي يعانيها الشعبُ، والردةَ الثقافيّة التي مهَّدتْ لها سياساتُ الأنظمة المتعاقبة في مصر، وساندَتْها القوى المهيمنةُ في الغرب. فتوالَت الإجراءاتُ ضدّ العناصر المتقدِّمة في الثقافة. وقامت السلطاتُ بمصادرة العديد من الكتب ومنها أربعةُ كتب لنوال السعداوي تمّت مصادرتها في معرض القاهرة الدوليّ للكتاب في أواخر كانون الثاني (يناير) سنة ٢٠٠١، رغم أنّه سبق نشرُ هذه الكتب منذ أربع سنوات في مصر. ومن بين هذه الكتب سيرتُها الذاتية: **أوراقي... حياتي** التي نُشرتْ في إحدى دور النشر الحكوميّة (مؤسّسة دار الهلال) وقامت دارُ الآداب بنشرها فيما بعد.

إنّ رفع قضية حسْبة ضد نوال السعداوي للتفريق بينها وبيني تأتي بعد مرور سنين على قضية المفكّر نصر حامد أبو زيد الذي أجبروه وزوجتَه على مغادرة البلاد. إنّها مؤشّر على المخاطر التي تواجه كلَّ صوت حرّ في مصر، وسيفٌ مُسلط على رقاب المثقفين والمفكّرين تحتفظ به الحكومةُ بين أيدي النائب العامّ بعد أن كان مستباحًا لأيّ فردٍ يريد أن يلجأ إليه ضدّ مَنْ لا يرضى عن آرائه. فإذا قرَّر النائب العام تحويل هذه القضيّة إلى المحكمة، وإذا نجحت السلفيّةُ في تنفيذ ما تريده، فلن يَسْلم أحدٌ بعد اليوم من

هجماتها. كما سيكون مثلُ هذا الإجراء وصمةً مشينةً تَلْحق بالنظام السياسيّ والقضائيّ في مصر.

أما في ما يتعلّق بنا، أنا ونوال السعداوي، فرغم المخاطر التي نواجِهها، فلن ينجح أحدٌ في إرهابنا. سنبقى في مصر، ولن نغادرها. إنّها بلدنا. وُلِدْنا، وترعرنا فيها، ونَهَلْنا من تاريخها ومن إبداعها. أعطتْ لنا قليلاً من السعادة، وكثيرًا من الحزن. لكنّنا اخترنا هذا الطريق ورضينا به. سنحافظ على علاقتنا وعلى أُسْرتنا. لن نَتْرك للفساد الذي استشرى في مجتمعنا فرصةً للنفاذ إلينا. لن نَفْترقْ أبدًا: هذا ما قررناه معًا، نوال السعداوي وأنا، ولا توجد قوّةٌ تستطيع أن تغيِّر قرارنا.

القاهرة

لن نسمح لهم بتحقيق هدفهم

د. فريدة النقاش*

اشتدّت الحملة على الكاتبة الطبيبة نوال السعداوي. ومؤخّرًا أشاع خصُومها أنّ النائب العام قد وقّع قرارًا بإحالتها على المحاكمة، مطالبًا بالتفريق بينها وبين زوجها الكاتب شريف حتاتة، وذلك بناء على دعوى حسْبة طلب رفعَها محامٍ من الساعين إلى الشهرة يتّهمها بازدراء الدين. وقد نَفَتِ الكاتبةُ تمامًا أن تكون قد صرّحتْ بشيء كهذا.

وعلى ما يبدو، فإنّ بعض الجماعات المتاجرة بالدين وجدتْ نفسَها فجأةً وقد دَفَعتْ بها إلى الظل حركةٌ ثقافيّةٌ جديّةٌ ومستنيرة بقوّتها وحضورها. فشاءتْ هذه الجماعات أن تعود إلى الأضواء بفضيحة جديدة، وذلك بعد الفضائح المتتالية: مِنْ قتل فرج فودة، إلى محاولة قتل نجيب محفوظ، وصولاً إلى طرد نصر حامد أبو زيد من البلاد، وتهديدِ أساتذة الجامعات الذين يختارون نصوصًا من عيون الأدب العربيّ والعالميّ الحديث ليقرأها طلاّبُهم، والتحريضِ على «تطهير» المكتبات الجامعيّة والعامّة من بعض هذه الكتب. وقد اختار المهووسون هذه المرّة نوال السعداوي لتوجيه ضربتهم إلى واحدة من أجرإ الأصوات في الساحة الوطنيّة والقوميّة والعالميّة، دفاعًا عن حقوق المرأة وإنسانيّتها من موقعها كطبيبة وباحثة معًا. وقد دخلتْ كتاباتُها في الكلاسيكيّات العربيّة الحديثة التي جرتْ ترجمتُها إلى عدّة لغات، وكانت في مناسبات كثيرة من أفضل الكتب مبيعًا.

وقد استطاعَتْ نوال السعداوي بشجاعتها الفكريّة والعلميّة أن تعالج تلك المناطق الحسّاسة من التجربة الإنسانيّة، وعلاقة الرجل والمرأة التي تواطأ المجتمعُ على إغماض عينَيْه عنها وتجاهُلِ رؤيتها أو الاقتراب منها بالدراسة والفحص.

وعلى حدّ قول الدكتور شريف حتاتة، فإنّ نوال لم تخش أبدًا الخوضَ في حروب ضدّ المشاكل الاجتماعيّة الراسخة جدًا في ما يخصّ الأسرةَ وعلاقةَ الرجل بالمرأة وعلاقةَ الجنس بالمجتمع. وكانت

دائمًا مدركة أنّ أفكارها ستُفزع الناس؛ فمن الطبيعيّ أن يَنْفر الناسُ من الجديد، لأنّ التعايش مع القديم أسهلُ وأكثرُ استقرارًا.

ولعلّ الفيلم الجميل «أسرار البنات،» الذي كتبتْه عزة شلبي وأخرجه مجدي أحمد علي وشاهدتْه مصرُ مؤخّرًا، أن يكون استجابةً غيرَ مباشرة للمطلب الأساسيّ لنوال السعداوي، والذي طالما دافعتْ عنه على امتداد ثلاثين عامًا، داعيةً إلى رؤية المشكلات على حقيقتها دون تزييف أو خداع للنفس أو دفن الرؤوس في الرمال، مؤكّدةً مسؤوليّةَ المجتمع كلّه من الأسرة إلى المدرسة والمؤسّسات التثقيفيّة والإعلاميّة المدعوّة جميعًا إلى تجديد نفسها حتى تكون قادرةً على مدّ يد العون للشباب والفتيات، وللرجال والنساء، لمساعدتهم على احترام أجسادهم. وأكّدتْ أيضًا أنّ اختلاف الوظائف لا يَجْعل الرجلَ أفضلَ من المرأة أو العكس، ودعت دعوةً حارّة إلى التوقُّف عن تشويه الجسد الإنسانيّ بالختان أو احتقار وظائفه باعتبارها صنوًا للخطيئة والدنس؛ وهي المفاهيم الراسخة والشائعة في ثقافتنا عن جسد المرأة على نحو خاصّ.

وحتى لو كانت نوال السعداوي قد عبّرتْ في أحاديثها عن آراء وأفكار يرى البعض أنّها خاطئة، فإنّ الردّ الحضاريّ عليها الذي يَسْتهدف حقًا تطويرَ الحوار الفكريّ في الساحة الوطنيّة والقوميّة ابتغاءَ استخلاص الجديد ورعايته، إنّما يكون بمجادلتها بالتي هي أحسن، لا «بالإبلاغ» عنها واستنفارِ الهوس المكبوت؛ وهو ما سبق أن جرّبَتْه هذه الجماعاتُ فقام مجرمون ـ ضحايا بقتل فرج فودة ومحاولة قتل نجيب محفوظ. وهي طريقة يَلْجأ إليها العاجزون عن الحوار لإرهاب المثقفين الأحرار وإسكاتهم. ولا يجوز أن نَسْمح لهم بتحقيق هدفهم.

القاهرة

---

* ـ كاتبة مصريّة تقدُّميّة.